العرب
من سايكس بيكو إلى مرحلة الوفاق

قلنا إن تجمع دول جنوب شرق آسيا، وأمريكا اللاتينية ومنظمة الوحدة الافريقية، والجامعة العربية، تتشابه في خصوصية التكوين والمشاكل، وأسلوبها في معالجة تلك المشاكل،[1] ونحسب أن جامعتنا العربية تنفرد من بين هذه الكتل بخصوصية كون دولها تنطق بلسان واحد، وتشترك في تكوين ثقافي وتاريخي واحد، وتعيش على أرض بتكوين طوبغرافي واحد تقريبا، ولكن رغم هذا التكوين الموحِّد، فإن عدد الدول الأعضاء فيها، ظل يتكاثر منذ التأسيس، حتى بلغ ثلاثاً وعشرين دولة، وليس هناك ما يمنع من توالد المزيد من هذه الدول مع تطور الأحداث الجارية.. !!

* * *

في آذار من عام ١٩١٦ وقع مارك سايكس وجورج بيكو معاهدة سرية عرفت باسمهما، الأول عن بريطانيا، والثاني عن فرنسا، لاقتسام الولايات العثمانية في الوطن العربي، بين القوتين الأعظم في ذلك الزمان، وهي الغنيمة المنتظرة بعد الحرب العالمية الأولى، لقد اتفق الجانبان على رسم الحدود

(١) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.

والخرائط المفصلة التي تبين حصة كل منهما، كما اتفقا على أسلوب التعامل مع تلك الغنيمة في مقبل الأيام، من حيث التسليح، وعزل المقاطعات، بقطع المواصلات بينها، بهدف تشكيل أوعية جديدة، لدول ومجتمعات تتلاءم مع مصالح الدولتين. ولقد أصبحت تلك المعاهدة «السرية» معروفة للعرب مبكرا، منذ أن كشفت الثورة الشيوعية الروسية نصوصها عام ١٩١٧، وبقيت عندهم - أي العرب - عنوانا على الخداع، وخيانة العهود التي قطعتها بريطانيا للقيادة العربية في ذلك الحين. ولقد نال العرب، في تلك المقاطعات استقلالهم بعد صراع طويل مع بريطانيا وفرنسا، ولكنهم بعد الحروب الشعبية للحرية والاستقلال، لم يخرجوا عن الأطر التي رسمها الاستعماران: البريطاني والفرنسي، ومن عجب أن تصبح تلك المعاهدة الشيطانية هي الأب الشرعي، أو الأصل في تخطيط الحدود المعترف بها، لمعظم دول الجامعة العربية، وأن يأخذ هذا التشكيل صفة الأمر الواقع، الذي يحكم تصرفات الناس وطموحاتهم، بل وأن يصبح هو قاعدة التنظير والتخطيط لحاضر هذه الأمة ومستقبل أجيالها.

لقد تهشمت صورة الأمة الواحدة في الوطن الواحد، وتوحشت شهوات السلطة، والفردية والأنانية وجعلت من الخطوط التي رسمها مندوبا الاستعمار البريطاني والفرنسي، أسوارا حصينة تستعصي على الهدم، حتى تواضعت أمامها أماني الوحدة وأهدافها، وأصبح دعاتها يرضون بالوقوف عند

الاقتصاد، ويتلهون بالشعارات «الشفافة» عن الأخوة والتضامن والمصير الواحد.

ولا غرابة إذن في أن نجد من بين المثقفين العرب، من يعتقد بأن هذا التشكيل العربي القائم هو الأصل التاريخي الذي كان في الماضي، والذي سيظل يحكم حركة المستقبل، وأن تسمع من الأجانب ـ على الأقل ـ من يردد أمامك، الكلام عن «الأمة» المصرية والعراقية، والسعودية، والأردنية، فضلا عن السورية والسودانية والمغربية واليمنية.. لقد أصبحت الأمة أمما، والوطن والدولة دولا وأوطانا وشعوبا، لكل دولة علمها وإذاعتها وتلفزيونها ومناهجها التعليمية ومتحفها الوطني وجيشها وشرطتها وأستادها الرياضي، وفريقها الكروي.. وانعكست هذه الصورة على حركة الانسان العربي داخل هذه الحدود أو الأسوار المصنوعة، وتراجعت القيم أمام الفردية والمصالح المادية، واختفت نداءات الوحدة وراء ما بنيناه بأيدينا من أسوار على خطى سايكس بيكو، بعدما رحل الاستعمار وتفيأنا بدماء الشهداء ظلال الحرية والاستقلال!

* * *

قال لي صديق من حملة القلم، في معرض دفاعه عن النظام العربي القائم، وضرورة التدرج للوصول إلى الوحدة أو الاتحاد... «إن العرب لم يخضعوا قط إلى حكومة واحدة»!

والحق أنه يوجد في التاريخ العربي الاسلامي متكآت كثيرة

لمن يريد التدليل على الفرقة والتناحر والخلاف بين الحكام، وخاصة أواخر الدولة العباسية، وابان الهجمات الصليبية وغزوات التتار، ومع ذلك فان الفروق كبيرة بين صورة الماضي، والصورة التي نعيشها اليوم، ذلك لأن سلاطين ذلك الزمان وحكامه لم يتدخلوا في حركة الانسان المسلم العربي، وغير العربي، في الوطن الاسلامي كله، لقد كان الوطن للجميع، بغض النظر عن حكامه، وقطاعات أولئك الحكام من الوطن الكبير، فكان المواطن في «سمرقند» ـ على سبيل المثال ـ يستطيع أن يعيش في مكة، وأن يتلقى العلم في أرجاء الوطن كله، من طنجة إلى بغداد، ومن البصرة الى قرطبة، وكانت التجارة والهجرة لا قيود عليها في الوطن من أقصاه إلى أقصاه، وكان المحدثون والعلماء والفلاسفة والمؤرخون لحمة الوطن الكبير يتحركون دون أي عائق من الغرب أو الشرق، ليحافظوا على تكوين هذه الأمة الثقافي وعلى بنيتها الأساسية، التي استعصت على عاديات الزمان، وصمدت أمام كل الصراعات الداخلية، والهجمات والغزوات الخارجية.. أما اليوم، عصر جوازات السفر والهوية و «الفيزا» ودوائر الجنسية ونقاط الحدود... فكيف يمكن أن ترحل بطون من قبيلة «بلي» لتستوطن الشمال الافريقي؟ وكيف يقود «أبو زيد الهلالي» قومه في رحلته الخرافية من الجزيرة العربية إلى تونس؟، وكيف تستقر بنو تميم في السند وتسكن بعض البطون العربية على أطراف بخارى..؟!

لقد نجح مقص الفرقة والانفصال في قطع أوردة الجسم

العربي وشرايينه، وانقطعت الدماء العربية عن دورتها الدائبة في الجسد العربي كله، ليتحول الجسم الواحد بعدها الى أجسام صغيرة مشوهة، لا تستطيع الصمود وحدها في موج الحياة العاصف!

وعلى بوابات الحدود الكثيرة في الوطن العربي الواحد، يقف حراس أشداء، كثيراً ما يشكو المسافرون عبر هذه البوابات من معاملتهم القاسية، وقد تهتم السلطات للنظر في هذه الشكاوى ليس من أجل أن «تصافح بعضها العرب» وليس بوحي من «بلاد العرب أوطاني . .» وإنما على الأغلب، من أجل تشجيع السياحة!

* * *

لقد انحرفنا قليلا عن مسار الموضوع الذي بدأناه عن التيارات التي أثارتها حركة الوفاق الدولي، ولكنا أردنا أن لا نتخطى الحديث عن أصل كتلة الجامعة العربية، التي تكونت بعد تمزيق الوطن الواحد، إلى الكلام رأساً عن موقع هذه الكتلة من تيارات الوفاق، والكتل التي تتشكل على هدى مسارها.

ولقد حرصنا على عرض صورة ـ ولو خاطفة ـ عن التكتلات الكبرى، قبل أن نصل إلى جامعتنا العربية لتكون هذه الصورة وسيلتنا إلى المقارنة بين الدوافع والأهداف، وبين العوائق والعراقيل، والطاقة والامكانات، هناك عندهم، وهنا في وطننا العربي ودولنا العربية.

ونستطيع القول بلا حرج إنه فيما عدا الاستبشار بقرب حل

القضية الفلسطينية بين المسؤولين العرب، فإننا لم نلحظ وقفة أو حركة أو مشاورات عاجلة، يمكن أن تكون تعبيرا عن انعكاس أو صدى للانقلاب الذي يجري في العلاقات الدولية، فضلا عن تحرك عربي واع لاغتنام مرحلة الوفاق، في سبيل تكتل عربي حقيقي، أو في سبيل تكتل أبعد في المحيط الاسلامي، لتشكيل كتلة حية تستطيع أن تتعايش مع الكتل العالمية الأخرى!

وإذا كانت أوروبا قد حسمت أمرها وقررت إلغاء الحدود فيما بين دولها بداية عام ١٩٩٢، من فوق أكثر من عشر لغات، ومجلدات ضخمة من تاريخ الحروب ومن فوق اختلافات الأنظمة وطبائع الناس، فإن دولنا العربية التي تتكلم اللغة الواحدة، وتنتمي إلى الأمة الواحدة ذات الرسالة الخالدة، تتحرك في واد منعزل، يعج بالخلاف والفردية وتضارب المصالح . . !

لقد جرت نماذج من الوحدة والاتحاد بين بعض الحكومات العربية في الماضي، ولكنها تجمعات سرعان ما تنتهي إلى التفكك، ووحدة سرعان ما تقود إلى الانفصال، وإذا كانت حكومات الجزيرة العربية ـ فيما عدا اليمنين ـ قد نجحت في التلاقي فيما سمي بدول التجمع الخليجي في المشرق، فإن دول المغرب العربي ما تزال في البداية تحاول الفكاك من شراك اختلاف أنظمتها وخلافاتها على الصحراء وعلى ميلاد دولة البوليساريو. وأما كتلة الوسط فما تزال في حيز الأفكار والمشاورات الجانبية وأمامها آثار الصمود والتصدي ضد «كامب ديفيد» وأنهار الدماء التي تسيل في لبنان، والاتفاق على كيفية

المـواجهة السلمية مع إسرائيل، واستقبال الدولة التي يتوقعون قيامها فيما يبقى من فلسطين. . وهي كتل على افتراض النجاح في تكوينها* فانها ليست كتل المرحلة التي تستطيع أن تتحمل مسؤولياتهـا في عالم الغد، وأن تحافظ على حصتها كاملة من ثمراته وخيراته، فضلا عن احتلال مكان لائق في المقدمة.

لقـد ابتليت هذه الأمـة بالاستعمار الاستيطاني الصهيوني الـذي جثم على صدرهـا في فلسـطين ولكن هذا التحـدي الصهيوني المدعوم من الاستعمار البريطاني سابقا، والأمريكي حالياً، لم يجمع العرب، وكل الثورات والانقلابات التي أخذت شرعيتهـا ومبرراتها من ضرورات مواجهة العدوان والقضاء على المعتدين، لم تساهم في توحيد العرب، بل على العكس فقد ساهم معـظمهـا في تعميق واقع الانفصال. وما زالت الدواهي تأخذ بتلابيب هذه الأمة، في العراق ولبنان والسودان الى جانب المحنة الدامية والدائمة في فلسطين. وهي محن أقلها كفيل في الأوضاع الطبيعية والمناخات الصحية أن تدفع الناس إلى الصف المرصوص، والجسد الواحد، ولكن الحكام العرب ـ مع الأسف يعيشون في واد آخر!

وبعد: فإن أوروبا ـ جارتنا ـ على الشاطىء المقابل، تلملم نفسها في دولة واحدة، فهل يجوز أن تبقى حكوماتنا تتفرج في لا مبالاة، وتتلهى بما يشبه الحركات البهلوانية، والعالم كله يتجمع

---

* كان هذا قبل قيام مجلس التعاون العربي، واتحاد المغرب العربي.

ويتـداخـل في حركـة غير مسبوقة، فاذا لم نهيىء أنفسنا مبكرا للصمود في مواقعنا، والاستعداد والتخطيط لمستقبل أجيالنا، فإن الآخـرين سيعـرفـون كيف يزيحوننا من الطريق، ويعزلوننا عن الركب، ويدفعون بنا إلى مهاوي الضياع.